

ظواهر قصب

في مسرحيات محمود تيمور
للأستاذ زكى طليمات

(تمة)

الموكب ؟

أن يسموها على أدب المناسبات ، بأن جعل « المناسبة » شيئاً
ثانوياً لا يستأثر بجوهرها ، ولا يطنى على الناحية الإنسانية فيها ،
بل إن « المناسبة » في هذه المسرحية لا تتجاوز أن تكون مطية
أحسن المؤلف اتخذها لإبراز عرض إنسانى تضرب فيها
شخصيات عريقة في إنسانيتها ، هي تضرب وتستقر ، ونصطفى
وتستكين ، كاشفة عما بنفسها من ظاهرو ومضمرو

والموكب في هذه المسرحية حقيقة ومجاز . حقيقة باعتباره
أنه كائن عادى يُسَمَّعُ وَيُرَى جانب منه ، يعج عجيجه وتصدح
موسيقاه ، وترتفع هتافاته فتسرى الهزة في شخوص المسرحية ،
وينطلقون يتحركون ويعملون ، كل منهم في الدائرة التي رسمها له
المؤلف . والموكب مجاز باعتبار أنه دلالة ممتوية على شيء في النفس ،
في نفوس أشخاص المسرحية . هو لون من ألوان الرغبة التي هي
لدى بعض الأشخاص في المسرحية مكتوبة مقيدة ، لا هي تهدأ
وتستكين ، ولا هي تنطلق من إسارها إلا بعد لأى ومداورة
ومراوغة ، ثم هي لدى البعض الآخر رغبة إيجابية في فورتها
تعمل مباشرة للانطلاق ولتحقيق غايتها .

أسرة في بهو بيت من بيوتات القاهرة اجتمعت حول المنياح
تنصت الفينة بعد الفينة إلى ما يقوله المذيع عن أوصاف الموكب
الذى ينظم في عطة العاصحة ليسير بالأمر إلى ساحات القاهرة
وطرقاتها . اصطفاق الجماعات وهي تمر بهذا البيت في طرقها
إلى المحطة ، ترتفع إلى آذان المجتمعين حول المنياح من وقت لآخر
قتشيع الهزة فيهم . والمجتمعون هم (فضل الله باشا) رب الأسرة ،
والشيخ مصاب بعصبة أمراض إلا المرض الذى يضعف الشهية
ويلجم ألهم ، وزوجة له دونه سنًا وفوقه نشاطًا وطافية ، وابن
وابنة لها ، في أول سنى الشباب يليسان أحدث الأزياء ، ثم ابنة
للوالد من سرير تقوض منذ زمن طويل ، ففى في منحدر العمر ،
وزوج لها يكبرها بأعوام ، الإثنان يتفقان في الحياء الذى

نقدنا اليوم خاص بمسرحية « الموكب » ، وهي المسرحية
الثالثة التى كتبها تيمور باللهجة العامية وأصدرها في مؤلف واحد^(١)
وتنفرد هذه المسرحية عن المسرحيتين الأخريين بأنها شاهدت
أنوار المسرح وطلعت على الجمهور في المكان اللائق بها . كان
ذلك منذ سنتين وتسعة شهور ، أيام الموكب والأعياد التى جرت
في القاهرة احتفالاً بالمصاهرة السعيدة بين البيت الملكى في وادى
النيل والبيت الإمبراطورى في إيران ؛ وهو عهد أتجه فيه النشاط
الاجتماعى — وذلك في بعض البيئات المصرية — وجهة خاصة
لم تدم طويلاً . والأدب من الاجتماع ، فكان أن كتب تيمور
هذه المسرحية بإيدان تلك الساعات المشرقة ، كتبها ليقدمها
المسرح المسرحى لوزارة المعارف على مسرح الأوبرا الملكية
في الحفلة التى أقامتها الوزارة احتفاء بهذه المناسبة السعيدة

هي مسرحية سعيدة ولا شك ، لأنها كتبت لمناسبة سعيدة ،
وقام بتأديتها نخبة من الفرق التمثيلية بالمدارس الثانوية ، هم طلاب
علم وثقافة لا يرون من الحياة إلا جانبها المشرق السعيد ؛ فلا غرو
أن جاءت مملحة بالمزاح الرح ، قياضة بالفكاهة العذبة ، تتوالى
مشاهدتها في إيقاع خفيف جندل

وهي مسرحية « مناسبة » من حيث الباعث على كتابتها
وإخراجها ، وروايات المناسبات — كما يدل الاستقراء في تاريخ
أدب المسرحية — لا يكون حظها كبيراً من القيمة الفنية ما عدا
القليل ، ومن هنا القليل هذه المسرحية ؛ فقد استطاع كاتبها

(١) في العدد ٤٤٠ ، ٤٤٣ من الرسالة قد وتعليل للمسرحيين
الأوليين (الصلوك) ، (أبو خوشه) ؛ وفي العدد ٤٣٩ بحث في اتجاهات
علم النفس بالمسرحية) هو نميد لا كتيبة عن هذه للمسرحيات الثلاث

التي يريد فرضها على أفراد أسرته^(١) ، وهو يأتي كل هذا بعقله الظاهر ليستر شيئاً مضمراً في ثنايا عقله الباطن ، وليقيم صلة منطقية بين العقلين

وأعجب من هذا أن الباشا ، وهو أثر يحب نفسه ، يفزع من سماع هذه الصفة ملتصقة به فتراه حيناً يصارحه بها ابنة « صفر » يتبرم ويتعثر ويأبى إلا أن يفسر هذه الصفة بأنها نزعة غضب أو استبداد !

ونعود إلى موضوع القصة . قلت إن « صفر وبشار » ووالدتهما يتزوّنان شوقاً إلى مشاهدة الموكب وأنهم يجاهدون من أجل ذلك ، فلا نلبث أن نرى صفر ، وكأنّ وحياً هبط عليه فجأة ، يصارح شقيقته وأمه بأنه وجد السبيل إلى الخروج من البيت ، ثم ينحني عليهما ويأخذون بأسباب همس حار

ويعترض سياق الهمس من جانب والحديث من جانب الباشا وابنته الكبرى وزوجها مشهد أوردته ، على ما أعتقد ، ابتغاء تنشيط الحركة المسرحية التي أخذت تركد بعض الشيء ، لا يخرج القارئ منه بشيء جديد أكثر من مطالعة شخصية جديدة هي « الشيخ كروان » وهو أفاق مشعوز ممن يخلطون الجد بالهزل ، ويمزجون المته بالذكاء ، توسلاً إلى التقاط المال اليسير الذي يعيشون عليه . وقد يضيف هذا للشهد لوناً ثانوياً على شخصية الباشا فتتكشف لنا ناحية من نفسيته ، وهي ناحية تلحظ عند كثيرين من البشوات السذج الذين ما برحوا يرون في التمرغ « بتراب الميرى » ولو بطريق اعتماد مقاعد البرلمان ، أمنية محبة مرموقة . وأغلب الظن أن المؤلف قصد بإيراد هذا المشهد أن يمهد للاعقاب النفسى التى سيجريه على نفسية الباشا فى نهاية المسرحية ، وذلك بطريق إظهار الباشا ممن يهتمون بالمظاهر الرسمية ومن لا يتركون فرصة تسنح دون أن يذكروا الدولة ورجالها بشخصهم الكريم .

وستأذن « صفر » فى الخروج بعد أن أضمر أمراً مع شقيقته

(١) فى صفحة ١٠٠ أكران من التعليلات التى يوردها الباشا تدعيماً لمراه فى البقاء بالهزل ورفضه رجاء زوجته وولديه فى الخروج لمشاهدة الموكب

لا سبب له ، وفى زرعتهما التحشمية المتحفظة البادية على لباسهما . نماذج بشرية من أجيال مختلفة ، وأمزجة مختلفة ، إلا أنها تتفق فى ناحية واحدة ، وهى الرغبة التى تساورهم جميعاً لمشاهدة الموكب !! الجميع يرغبون فى الخروج ولكن ...

ولكن الباشا (فضل الله) يكره الخروج لأنه يحقت الرغام كما أنه متعب من أوجاع داء الفاسل ، وابنته الكبرى وزوجها (زهرية وبديع) يودان الخروج ولكنهما يكتبان الرغبة احتراماً للباشا . هذا فى حين أن زوجة الباشا (ظليته) ووليسها (بشار وصفر) يتوقون جميعاً إلى الخروج ويجهرون بهذا ويعملون على تحقيقه ... مجتمع طريف ولا شك من حيث تبين النزعات ، ومن حيث موقف النفوس أمامها .

الباشا لن يستطيع مشاهدة الموكب لأنه لا يريد أن يرح مكانه باسم المرض ، إذن فلا خروج لواحد من أفراد الأسرة ، ولا متعة إلا ما يستطيع أن يستمتع بها هو قبل كل إنسان . الباشا قانع ومسرور بمشاهدة الموكب بمن الخيال الذى يبعثه صوت المذيع من الراديو ، فواجب أن يقتنع الجميع بقناعته ، وأن يسروا سروره . الباشا ، بمباراة أخرى ، أثرٌ يحب نفسه ، الباشا تصرعه الأنانية ...

يبد أن هذه الأنانية أو الأثرة لدى الباشا غير ملحوظة بحقيقتها من وعيه الظاهر ، لأنها من إحياء المضمهر الكامن فى وعيه الباطن ، والمرء قلما يشعر لأول وهلة بحالة نقص نفسى فيه . ولذلك نرى الباشا يلبس هذه النقيصة وهو لا يشعر بحلة غير حقيقتها وضررها تفسيراً خاطئاً ، وأداته فى ذلك المنطق الكليل القاصر عن النفاذ إلى جوهر الأشياء ، فراه فى حديثه يزجى حشداً من الأسباب لتبرير البقاء فى البيت والاكتفاء بسماع الراديو^(١) ، ويورد مبررات منطقية لها ظل من الحقيقة النسبية

(١) فى الصفحة رقم ٩٦ س ٣ يقول الباشا : « خلاص حينؤمكم ليه ما دام الراديو حيوصف لكم كل الاحتفال من طاملاً لسلام عليكم . اشمتا يبنى الناس ييسموا فى الراديو أخبار أوروبا وأمريكا ويبطلوا منها ؟ م معنى راحوا شافوها ؟ » إلى غير ذلك ...

انتظمت صفوفه في الميادين ، نسمع الباشا يصارح ابنته في قوته .
وها هو يقوم ويطل من الشرفة فيرى جماعة من الشيوخ والنواب
في ملابسهم الرسمية ، وهم يطوفون الطريق في سياراتهم ... إنه
ينادى الخادم ، ولكن الخدم تركوا البيت لمشاهدة الموكب ...
إنه يطلب إلى ابنته أن تأتيه بالسترة الرسمية الخاصة بالشرقة ! .
ولماذا ... ؟ إنه يخاف أن تكون العلة قد تطاولت عليها ! بإدرات
ظاهرة ثم عن لمعات نفسية باطنة يأتيها الباشا وهو لا يحس
بدوافئ الحقيقة !

المذيع يلهب الفينة بعد الفينة النزعة الجديدة التي أخذت
تلبس الباشا وقد أخذ يرتدى سترة الرسمية بعد جهد وجهاد .
هو يتمتع سيفه ويتخطر أمام المرأة . إنه يتعجل ابنته أن تميد
تثيت الأزرار التي انفرط عقدها ، ثم ...

ثم ها هو (عبد الغفور بك) جاره العزيز يقتحم البهو وسأل
الباشا أن يعيره ما يشد به (بنطلونه) !
وكيف تأتي أن يترك (عبد الغفور) زوجته وهي على أهية
الوضع ؟

وإذ ذاك يسقط القناع عما دبره (صفر) ، لقد تكلم باسم
زوجة (عبد الغفور بك) واختلق مسألة الوضع اختلاقاً ليسر
خروج والدته وشقيقته ...

الباشا يتوعد ابنته ، ولكن سرعان ما ينسى أمام صوت المذيع
الذي يعلن وصول القطار المقل للأمير إلى المحطة .
الباشا يدور على نفسه مصطحباً هندامه ، متمسكاً بأثاث البهو ،
ثم يتطلق خارجاً ووراءه صديقه (عبد الغفور بك) .
يبقى بديع وزوجته ابنة الباشا الكبرى ...

وهنا يقول المؤلف « يراقب بديع الباشا في ذهول وهو يهرش
رأسه ، يبادل زوجته النظرات ، ويقفز جازياً نحو الباب وهو
يصيح : الله ! ! ! إسمعنا احنا ؟ حصليني أوامك ... بس اوعى
تسى البرقع »

وهكذا يبارح « فضل الله باشا » داره لمشاهدة الموكب بعد

ووالدته فيسمح له . وبعد برهة قصيرة يبدو فيها الباشا أكثر
اهتماماً بسماع أقوال المذيع عن وصف الموكب ، وكأنما قد بعث
في نفسه أقوال « الشيخ كروان » عما تتداوله الألسن عن قرب
تميين الباشا عضواً بمجلس الشيوخ ، يدق جرس التليفون ...
صوت ناعم يتكلم ويرجو حرم الباشا أن تسارع بالحجى من
أجل مسألة هامة ، والباشا يمارض ؛ ولكن البيت الذي ستذهب
إليه حرمة مجاور لبيته ، والداعية صديقة حميمة لها ، وزوجها
(عبد الغفور بك) جار عزيز لدى الباشا ، والمسألة خاصة بوضع
تسجل أوانه ، فلا يجد الباشا بداً من النزول على لإزادة الداعية
وإجابة التماس زوجته ، فتخرج (نظيرة هانم) وابنتها (بشاير) ،
ويبقى الباشا ومعه ابنته الكبرى وزوجها .

وسرعان ما يقتحم بهو البيت حيث يتربع الباشا وقد يهتفون
باسمه الكريم . الوفد هم أعضاء (جمعية الفتان المصلحين) التي
يتقلد رئاستها الفخرية الباشا ولا نفر
ما أحزن تيمور في إيراد المتناقضات الخلقية في الشخصية
الواحدة ، تلك المتناقضات التي تثير الضحك في غير افتعال ،
وتبعث معين الرحمة في القلوب فتتمتد أطرافها إلى تقاهات الإنسانية
وضمها العريق !

لنغتم الوفد فرصة مرورهم أمام دار الباشا فصعدوا ليدكروه
بأن دار الجمعية ترحب بتشريفه لمشاهدة الموكب عن كذب ومن
غير عتاء . ثم يأخذ زعيم الوفد في الإشادة بهجة للموكب وبجلال
الموكب ، فترى الباشا يستنذر عن إجابة دعوة الوفد . ولا يستنذر ،
وإذا به نهبة لتيارات جديدة ... وينصرف أعضاء الوفد هاتفين
بحياة الباشا

وتبدر بعد ذلك بادرة ثم على أن الباشا بدأت تملج نفسه
بأشياء لم يكن يحبسها من قبل . ها هو يطلب إلى ابنته الكبرى
أن تفتح شباك الشرفة على مصراعيه ، والشرفة تطل مباشرة
على الشارع حيث تمر الوفود لتنظم في سلك الموكب ، هو يطلب
هنا يدعو أن الهواء معتبس في البهو

وإذ ينتهي التذيع من قوله في وصف روعة الموكب وقد

أن كان عاقداً العزم على البقاء فيه ، وبعد أن حاول جهده احتجاز أفراد أسرته معه .

والآن نسأل هل كان الباشا صادقاً في عزمه على البقاء في المنزل ؟؟ ولئن كان كذلك فلماذا بارح المنزل ، وأين ذهبت آراؤه ومأثورات أقواله في الاكتفاء بسلام ما يذيعه المذيع عن أوصاف الموكب ؟؟

نعم كان الباشا صادقاً في عزمته ، وكان قائماً بالبقاء أمام المذيع مؤثراً الراحة في جلبابه وعباءته على التسبب في سترته المشدودة لأن نفسه كانت لا تحتلج بلاعج يثير كامناً فيها يلوح له بأطراف أمان يصبو داعماً إلى تحقيقها . وكان كذلك مخلصاً في دعوة أفراد أسرته إلى البقاء في المنزل بل واحتجازه حولهم ، لا خوفاً عليهم من أخطار الطريق المزدحم ، وتطاؤل النظرات العابثة كما كان يجري لسانه بذلك ، ولكن إجابة لداعي أنانية لاتبسته إذ ذاك ، مردها - كما أسلفنا البيان - إلى ألا تكون متعة من جانب أمر - - - يريد ، أو هو لا يقدر على أن يستمتع بها أولاً ! ومرض الباشا ؟ . . . نعم إن الباشا مريض ، ولكنه مرض لا يحجزه عن الخروج إذا أراد . أما إذا لم يرد فالمرض يقفز إلى الصف الأول من الأسباب التي يصح أن يعتذر بها عن الخروج . وقد كان الأمر كذلك في أول الرواية ، ثم كان عكس ذلك في نهايتها ! !

رأينا الباشا يصمد لإغراء أقوال المذيع عن بهجة الموكب وطرافته ، ويتمسك برأيه في البقاء بالمنزل ويسفه كل رأى عداه . ولكن حدث أن حاج « الشيخ كروان » في نفسه أمنية افتصاد مقعد في مجلس الشيوخ فطمعت نفسه بشيء خاطف ألهاه بعض الشيء عما كان موطناً النفس عليه ، وأخذ أفراد أسرته يتركونه الواحد بعد الآخر بحجج لم يستطع دفعها ، وجاءت متافات جمية الشبان ودعوتهم إياه إلى مشاهدة الموكب من مكان لائق مأمون فاتجهت أنانيته السابقة الذكر والتعليل ناحية أخرى هي التفرّد بمشاهدة الموكب من مكان قد لا يوفق إليه غيره ممن خلفوه بالمنزل وخرجوا ، فكان يشرف مباشرة على مسير الموكب

اصطلحت كل هذه الواردات والتأثرات على الباشا المنيد فجعلته يلين وجعلت لأقوال المذيع منفذاً إلى مكانة الرغبة في نفسه فسعرتها فإذا هو يندفع خارجاً وفي لباس نالت منه الأيام فجعلته غير صالح للظهور به في حفل كبير !

حقاً إن الإنسان لكائن متغير كصفحة الماء لا يقيم على حال ، وله في كل حال آراء ومنطق ومذاهب بفعل المؤثرات التي تطلق من أعماق النفس تيارات تسيطر عليه وتوجهه كما يريد

وحقاً إن شخصية (فضل الله باشا) هذه تقدم لنا صورة من التقلقل والضعف اللذين لقحت بهما إنسانيتنا ، واللذين يبدوان حتى في أتفه الأمور

وهناك ظاهرات نفسية صادقة وطريفة تنصيدها العين الفاحصة في بعض شخصيات المسرحية . ولعل أعجبها ما يدر من شخصية (بديع بك) صهر الباشا . هذا التزم القنق يقع في تناقض عجيب حينما تندفع رغبته المكبوتة في مشاهدة الموكب وذلك بمجرد أن يرى والد زوجته يارح البيت فلا يبال أن يترك بدوره المنزل مخلقاً وراءه زوجته على أن تلحق به منفردة وبغير دليل وحارس لتخوض أمواجاً بشرية من الرجال المتدافعين بالناكب !

هذه كلمتي الأخيرة عن كتاب (ثلاث مسرحيات في فصل واحد) لمحمود تيمور قصرتها على معالجة الناحية النفسية والإنسانية في أبطال هذه المسرحيات ، وذلك باعتبار أنها الناحية الثابتة التي لا تتغير من الحقائق التي ضمنتها هذه المسرحيات ، وأنها أجدر هذه الحقائق بالشرح والتبصرة ، وأولاهما باهتمام الناقد وبمحكمة عليها من ناحية صدقها ومن ناحية مبلغ توفيق المؤلف في معالجتها . وقد أجريت قلبي في هذا بغير قليل من الإسهاب لإرادة البيان والتبيين . ولا شك في أن « تيمور » توخى فيما توخاه من كتابة مسرحياته هذه ، أن يقربنا بعض الشيء مما تنلق عليه نفوسنا تارة وتفتح عنه أخرى ، وهذا من صميم الأدب والفن ، لأن الأدب الحق هو ما قرب الإنسان إلى معرفة نفسه